في حركة تحرير وطني تعيش ظروفاً سياسية واجتماعية شديدة التعقيد. وعلى هذا، فان الواقع الذي نراه طبيعياً، ومفهوماً، هو ذلك الذي تحتدم فيه المناقشة ويعلو صوت العقل، اذ لا أشد على الثورة ضرراً من تلك الحكمة البائسة التي تعتبر ان «الخلاف يفسد الودّ»، على ما تعنيه من افتعال المحبة والركون اليها، حتى اذا جاءت المنعطفات الصعبة فرّ كل مُحبّ الى متراسه القديم وباح من خلفه ببغضائه التي تجمدت، ولكنها لم تمت، فاطلق لها العنان لتعيد الفرقة من جديد.

المطلوب، اذاً، ان نختلف (لا ندعو بذلك الى افتعال الخلاف، فهو موجود في كل حال)، ولكن المطلوب هو تماماً ان نبلور عقلاً يقبل الاتهام بالقصور والتقصير، كخطوة لا بد منها من اجل استمرار نفض الرماد عن طائر الفينيق الذي نتغنى جميعاً بمقدرته السحرية على النهوض من الكبوات والتحليق عالياً في كل مرة. وفي هذا السياق، تأتي مقالة صبري جريس، وان تكن هي الأخرى قد لبست لباس المناسبة.

على ان أبرز ما يميز لهجة جريس في مقالته، من حيث الشكل أولاً، الاغتراب. اغتراب الكاتب عن موضوعه، واغتراب الموضوع عن أهله، وكأن الكاتب، في حديثه عن الثورة الفلسطينية، يتحدث عن ثورة أخرى لا ينتمي بصلة قرابة معها او مع أهلها. هذه اللهجة يمكن لمسها بسهولة ويسر من خلال السخرية التي تطبع تشخيص جريس لامراض المقاومة؛ وهي سخرية كان يمكن ان تكون ذات فائدة لو لم تحمل بين سطورها تلك المسحة من الشماتة، وكأن المطلوب، بالضبط، تعداد اوجاع المريض تمهيداً لقبره، وليس لمعالجة كل واحد من هذه الامراض بالعلاج الملائم. كتب جريس: «والسبب الرئيس لذلك كما يبدو لنا، هو أن الحركة الوطنية الفلسطينية الحديثة ـ مثل معظم حركات التحرر في العالم الثالث ـ تعاني من أمراض خاصة بها. وهذه الامراض المقاومية هي وراثية خبيثة، معظمها مستعص على العلاج، ويزداد فتكا مع تقدم المصابين به في السن» (ص ٤ ـ ٥).

نحن، اذاً، وسلفاً، ازاء مقاومة تعاني من أمراض عديدة لا ينفع مع معظمها العلاج. أي اننا، بقول آخر (غير صريح هذه المرة)، ازاء مقاومة تذهب، رويداً رويداً، الى مصير اولئك المصابين بالامراض الخبيثة المستعصية: الموت. واذا تأملنا جيداً، فان استعراض امراض المقاومة بعد ذلك، لن يكون الا من باب تفصيل هذه «الحقيقة» النهائية وزيادة شرحها. وهي، على أية حال (وكما يعددها صبري جريس)، مرضان: النزق أو «الولدنة»، ثم «المهجرة». واذا كان الكاتب، بالنسبة الى المرض الاول، لم يقدم الا وصفاً سريعاً لـ «نفسية» جيل المقاومة بـ «تنظيماته وزعاماته وكوادره ومن لف لفهم» هو أقرب الى وصف نفسية اتحاد طلبة، فانه حاول، بالنسبة الى المرض الثاني، ان «يحلل» ظروف المهجر، فقدم جملة من الاوضاع السياسية والحياتية التي يعيش من خلالها الفلسطينيون في ظروف متباينة. على ان هذا التباين، الذي يبدو بحكم كونه خارجاً على ارادة الشعب كما لو كان قدري الارادة ولا فكاك منه، يبدو، في الوقت ذاته، مسؤولية الجسم المقاومي بـ «تنظيماته وزعاماته وكوادره ومن لفّ لفهم». وهذا المرض، أيضاً، كما أسلف الكاتب، مستعص، بل انه أزمة «مرشحة لأن تدوم طويلاً، بل وتتفاقم وتؤدي الى الشلل، وربما الى الاختناق». واذا كان الشعب الفلسطيني، كما يعرف القاصي والداني من عالمنا الراهن، يعاني، فعلاً، من ظروف المهجر وتشتت ابنائه في تجمعات مختلفة، وباطارات اجتماعية وسياسية مختلفة، فان هذا، بالضبط، ما يناضل من أجل نفيه وتغييره. وهو في نضاله هذا قد حقق على طريق ذلك خطوات بالغة الاهمية (كما يقرنا الكاتب في مواقع أخرى من مقالته) مثبتاً بذلك أن مرض «المهجرة» ليس مرضاً مستعصياً على العلاج، وان يكن خبيثاً يدعو الى حتمية علاجه والخلاص من شروره.

لماذا يعتقد جريس بأن تشخيصه هو حقيقة راسخة ؟ لماذا يقدم وجهات نظره باعتبارها مسلمات، ثم يحاول ان يبني على هذه المسلمات ما شاء له ؟

تعالوا نتأمل هذه الفقرة التي يضع فيها الكاتب رأيه بالحوارات الوطنية التي سبقت انعقاد الدورة الاخيرة للمجلس الوطني، وكذلك نتائج اجتماعات هذه الدورة. كتب جريس: «ومن هذا المنطلق بدت لنا حمّى ' الحوارات ' و' الوحدة ' التي اجتاحت الساحة الفلسطينية خلال الشهور الماضية هامشية وغير مجدية، وظهرت الدورة الاخيرة للمجلس الوطني قبل عقدها شاحبة وعديمة الفائدة (ثم اتضح بعد انتهائها انها كانت ضارة)